الحلف العربى
والموسوعة العربية

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

« مقال اقتبسه لقراء (المعرفة) حضرة الزعيم السورى الكبير الدكتور شهبندر من بعض خطبه السياسية والاجتماعية فى موضوع الحلف العربى »

لقد حمل الألمان حملة منكرة على السياسة الخيالية الواسعة التى اندفع فيها أنور باشا وطلعت باشا وأحمد جمال باشا وغيرهم من زعماء الترك الاتحاديين فى إبان الحرب العامة ، ودعا المارشال (هندنبرج) هذه السياسة فى مذكراته صفحة ٢٢٩ « أحلاماً سياسية شرقية » والأحلام لا تبنى الممالك ولا تشيد المعاقل القومية ، وقال بصددها « وكان علينا أن نطلب من الترك الأقلاع عن هذه الخطط البعيدة المرمى ، وأن يبيعوها بالحقائق الحربية الملموسة ، بيد أننا ويا للأسف ذهبت مساعينا أدراج الرياح ، وكان النفعيون والمتعصبون فى القسطنطينية لا يقر لهم قرار مالم تسقط مدينة (باكو) بأيدى الترك ، فى حين كان صرح المستملكات التركية القديم فى سورية والعراق متداعياً للانهيار . »

يمثل هذه الجملة القاسية حكم اخصائى حربى عظيم كالمارشال (هندنبرج) على جميع تلك السياسة الوهمية التى نفخ روحها هؤلاء الرجال المندفعون ، وهى تستخلص فى أنهم حلموا بتأليف دولة كبرى تضم شتات العناصر الطورانية الموجودة فى الأناضول والقفقاس وأذربيجان والتركستان الشرقية فى الصين والتركستان الغربية في الروسيا ، تحت لواء الخليفة فى الاستانة .

وبهمنا والشرق الأدنى يعالج اليوم قضية كبرى كالقضية العربية — ألا يرمى أصحابها بأنهم أهل أحلام شرقية وطلاب غايات لا تتفق والعالم الصحيح فى شىء . فعلينا والحالة هذه أن نتبسط فى هذا الموضوع بعض التبسط ونبين الغاية العملية التى يمكن تطبيقها منذ الآن توطئة لغيرها من الغايات المتعلقة بتعاون الناطقين بالضاد ، وأن نقول بكل جلاء : إن الشرط الجوهرى لتأليف حلف عربى بالمعنى الاصطلاحى الصحيح هو أن تكون البلدان العربية التى تنشده متمتعة باستقلال عملى لا شائبة فيه ، وهذا غير متيسر فى الآونة الحاضرة ، ما دامت بعض الاقطار

العربية التي يجب أن تكون في مقدمة المتحالفين مرتعاً للدول الاستعمارية ، فمن التناقض السياسي أن تدعى الدخول في مثل هذه المحالفة .

ويلوح لي أن السبب الأكبر الذي أدى إلى القال والقيل حول مشروع «الحلف العربي» الذي نوهت به الصحف منذ حين ، وذكرت مادار حوله بين الحكومات العراقية والحجازية واليمنية والشرقدنية هو خلو معاجمنا وكتبنا العلمية من تعريف المصطلحات الحديثة تعريفاً مضبوطاً ، فلو قالت هذه الكتب إن « الاتحاد » مثلا ، يعني عند الاوربيين (فدراسيون) «والاندماج» يعني (union) و « الحلف » يعني (Confédération) ماوقعنا في هذا الارتباك .

و « الاتحاد » يدل في الكتب السياسية الحديثة على نوع من الحكم متصل منفصل في آن واحد، ولا يحلم به أحد من المشتغلين بالقضية العربية الآن مهما كان خياله واسعاً ووازعه العلمي ناقصاً ، وهو يعد كالا منشوداً حتى في أوروبا ، والمثال البارز عليه حكومة (سويسره) المؤلفة من المقاطعات (كانتونات) المتباينة في سلالاتها وفي لغاتها، وحسبها نجاحاً أن تجتمع فيها الطليانية والفرنسوية والالمانية على صعيد واحد ومائدة واحدة . وأما الحلف (الكونفدراسيون) فهو بعيد عنا أيضاً، ونحن في المرحلة الحاضرة، لأن الشرط الاساسي في تأليفه هو أن تتمتع الوحدات الداخلة فيه باستقلال صحيح . قال الاستاذ (ليكوك) في كتابه « مبادىء السياسة » صفحة ٢٣٩ ما ترجمته « وليس الحلف دولة واحدة وإنما هو مجموعة دويلات ذات سيادة مستقلة قد اتحدت فيما بينها على شروط معينة محدودة ، ولكل واحدة منها من الوجهة الشرعية حق الانسحاب متى شاءت . »

والكتب السياسية مجمعة على أنه ليس في العالم اليوم حلف بمعنى (الكونفدراسيون) بل المثال التاريخي الذي ينطبق عليه هو الحلف الذي عقدته الدويلات الألمانية في سنة ١٨١٥ ودام الى سنة ١٨٦٦ ولا أرى بأساً أن أشير هنا اليه بشيء من التفصيلات لما لموضوعاته من الشبه العظيم بالموضوعات التي نعالجها . وقد ذكر المؤرخون أن في مقدمة الاسباب التي أدت إلى تأليفه ما عانته تلك الدويلات من الآلام الممضة بسبب الحروب التي أضرم نارها (نابليون بونابرت) . والشعوب الحية تستفيد من الآلام عادة ويتقارب بعضها من بعض ، لأن الألم هو المدرسة التي ترى الرجال .

تألف هذا الحلف من ثمان وثلاثين دويلة ، كل واحدة منها مستقلة بشؤونها الداخلية ولها حق الاتصال بالدول الأجنبية على شرط أن لا تعمل عملا يضر بسلامة أي عضو آخر أو

بسلامة المحالفة نفسها ، وكان على رأس الجميع سلطة مركزية قوامها مجلس يدعى (ديت) يلتئم فى فرانكفورت ، وصلاحيته سن الشرائع الدولية والدساتير الأساسية الخاصة بشؤون الحلف من خارجية وداخلية وحربية وعقد المعاهدات وإرسال السفراء وقبولهم وإعلان الحرب على الدول الاجنبية إذا هى هددت أراضى الحلف . وكان لكل دويلة الحق بأن تحافظ على جيشها الخاص وحكومتها وترتيبها التخريجى الديبلوماتى . وظل الأمراء من الوجهة العملية ملوكا فى دويلاتهم ، وكان مجلس الحلف أو (الديت) عبارة عن مؤتمر مؤلف من سفرائهم ، ولكل سفير منهم عدد من الاصوات فى الاقتراع متناسب مع مكانة الدويلة التى يمثلها . وقد اعتمد هذا المجلس على سلاح الفرسان لأنه لم يكن له جيش خاص يحميه ويذود عنه ولا جرم أن الصبغة التى اصطبغ بها كانت نمسوية . ونرى مما تقدم أن السيادة التامة على الأعضاء الذين شملهم الحلف كانت موزعة بين مجلس الحلف من جهة ، وبين الحكومة المحلية فى كل دويلة من جهة أخرى .

هذه بعض معلومات عن الحلف الجرمانى أرجو أن تنير لنا الطريق فى معالجة قضيتنا العربية ، وكل ما نستدل به من هذا التحليل التاريخى والسياسى هو أن عقد حلف بين الدول العربية فى حالتها الحاضرة — فضلا عن عقد ائتلاف — هو من باب الأحلام التى أشار اليها المارشال (هندنبرج) فى مذكراته ، إذ كيف يعقل أن يدخل الحجاز ونجد واليمن والعراق وسورية وشرق الاردن وفلسطين ومصر وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش تحت سلطة مجلس واحد مؤلف من مندوبين عن هذه الاقطار وله صلاحية عقد المعاهدات وإرسال السفراء وقبولهم وإعلان الحرب على الدول الاجنبية ، فى حين أن بعض هذه الاقطار إما ملحق بالدول الاستعمارية مباشرة أو موضوع على استقلاله من الحواجز ما يحول دون تمتعه بسيادته القومية تمتعاً صحيحاً ؟ . وهل يمكن لهذه الاقطار وزارات خارجية حرة تتصرف فى الامور بحسب ما توحيه اليها مصالحها القومية ، لا بحسب الاوامر التى تصدر اليها من الخارج فكل اتفاق فيما بينها لا يجوز بوجه من الوجوه أن يدعى حلفاً . على أن هذا الكلام لا يقلل من قيمة كل اتفاق تعقده هذه الاقطار ليكون توطئة للعمل القومى الكبير القادم كما فعل رئيس حكومة العراق نورى باشا السعيد فى الحجاز أخيراً ، حيث عقد معاهدة بحسن الجوار واتفاقاً على التحكيم فى الخلافات التى يمكن أن تنشأ بين القطرين العربيين الشقيقين ، وعلى الدخول فى مفاوضات من أجل إلغاء الرسوم الجمركية على منتجات البلادين وإبطال جوازات السفر ، والتعاون على مافيه مصلحة المملكتين من الوجهة العلمية والفنية .

وإذا كان عقد حلف عربي بين الاقطار التي ذكرناها غير متيسر الآن للأسباب التي نسردها ، فان الاتفاق على مثل هذه الأسس بين الحجاز ونجد من جهة والعراق من جهة أخرى، يعد عملا قومياً ذا قيمة كبيرة. ورفع الحواجز الجمركية بين القطرين الشقيقين هو في الواقع منطبق على قاعدة (الزولفرين) التي تمشى عليها الحلف الجرماني ، فكانت توطئة جوهرية للامبراطورية الالمانية التي أعلنت فيما بعد في سنة ١٨٧١.

أما التعاون على مافيه المصلحة العلمية والفنية ، فهو رمز الحركة الكبرى التي تتمخض بها الاقطار العربية الشاسعة من الخليج الفارسي في الشرق، إلى بحر الظلمات في الغرب، لأن الناطقين بالضاد أدركوا بعد غفلة عميقة تلك الحقيقة العملية البسيطة، وهي أن رابطة اللغة حصن منيع في الجبهة الاجتماعية، وأن مقام الامة في سلم الارتقاء هو على قدر سمو اللغة التي تتكلم بها، وكل من يضع لها كلمة جديدة لمعنى مبتكر رفيع إنما يفتتح لسلطانها مدينة جديدة في مملكة الحضارة وسيبحث الاحفاد في لغتنا ومعاجمنا وكتبنا الفنية والعلمية والادبية عن مبلغ عقولنا وأرواحنا لأن هذه المدونات هي سجل نفسيتنا وعقليتنا . وأرى من الواجب أن تشجع بعض الاقطار العربية منذ الآن على توحيد برامجها التعليمية . وأظن أن مثل هذا العمل القابل للتطبيق يكون من أنفذ الوسائل للتقريب بين رجال المستقبل و إعدادهم للتعاون الوطني المنشود .

ومتى تكللت الجهود المصروفة الآن لعمل الموسوعات العربية بالنجاح، وحازت مصر والعراق قصب السبق في هذا المضمار بابراز هذا الاثر النافع إلى حيز الوجود على أيدي أي حزب أو بواسطة أي رجال، فان الثقافة العربية تكون قد خطت بفضل هذين القطرين العربيين خطوة واسعة إلى الأمام، وحق للناطقين بالضاد حينئذ أن تكون لهم كما كان لأجدادهم حصة التطور العلمي العالمي ، ونصيب في التهذيب العام .

ومن زعم أن الاستقلال في هذا العصر يدوم من غير علم يؤيده و يثير طريقه، وتهذيب يشد أزره و يلم شتاته ، فهو من أهل الأوهام والأحلام ؟

عبد الرحمن شهبندر

***

« المعرفة » تتقدم بجزيل الشكر لحضرة الزعيم السوري الكبير الدكتور شهبندر ، على رأيه الجليل في مشروع الموسوعة العربية ، ونرجو أن يعنى حضرات الكتاب والمفكرين ببحث هذا الموضوع و إخراجه من حيز القول الى حيز العمل ، و يسر « المعرفة » أن تعرف آراء حضراتهم في ذلك .